

# صورة الآخر في أدب التوقيعات في العصر العباسي

أ.م.د: إسراء خليل فياض

أ.م.د: أوفى مزيد الظاهر

كلية التربية / الجامعة المستنصرية

بسم الله الرحمن الرحيم , الحمد لله رب العالمين , والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين نتحدث ورقتي البحثية عن صورة الآخر المتمثلة من خلال التوقيعات العباسية بمواضيعها المختلفة ومقاماتها المختلفة من توقيعات خلفاء , امرء ووزراء وتوقيعات ادراية فضلا عن التوقيعات النسوية , وقد انبثقت فكرة البحث من خلال اطلاننا على أدب التوقيعات في العصر العباسي وما يمتاز به من ايجاز بلاغي مكثف تتمحور من خلاله صورة الآخر بوجوهها المختلفة , من خلال الاقتباس القرآني او التضمين التأريخي والادبي الكامن في تلك التوقيعات الأدبية , جاء البحث في ثلاثة محاور , فضلا عن مقدمة وخاتمة وقائمة بمصادر البحث وهوامشه :  
المحور الأول : كان بعنوان ( مفهوم الآخر ) تحدثت فيه عن مفهوم الآخر , وجاء المبحث الثاني بعنوان ( في أدب التوقيعات ) , تحدثت فيه عن فن التوقيعات وظهوره وتطوره وانواعه , وجاء المبحث الثالث ليكون بعنوان ( التطبيقات النصية لصورة الآخر في فن التوقيعات ) وفي هذا المبحث سلطنا الضوء على النصوص التوقيعية مبينين صورة الآخر بسياقاتها المختلفة من خلال التحليل الفني وتوظيف الآليات البلاغية في رسم صورة الآخر .

### المحور الأول : مفهوم الآخر

هناك الكثير من المفاهيم الحديثة التي انتشرت في الخطاب العربي ولم تكن متداولة من قبل ومن تلك المفاهيم مفهوم (الأنا والآخر) الذي ينتمي اصلا الى الفكر الاوربي , فالفلسفة الاوربية الحديثة هي اساسا فلسفة الأنا (الذات) , فالنسان ذات في مقابل العالم الذي هو موضوع لها . والفكرة المؤسسة لفلسفة الذات هذه هي فكرة كوجيتو ديكارت , فلقد شك هذا الفيلسوف الفرنسي في كل شيء , ولم يبق لذيه اي شيء آخر غير كونه يفكر , ومن هنا انبثقت فكرته الشهيرة : " انا افكر اذن انا موجود " , وبذلك فوجدوا الانا سابق ومستقل عن وجود العالم وعن أي وجود آخر . ونستطيع القول وفقا لذلك ان علاقة التباير هي علاقة بين الأنا والآخر , سواء كان هذا الآخر هو الأشياء المادية المحسوسة التي يتوقف وجودها على يقين الانا بوجودها , فالشبكة التي يرى العقل الاوربي العالم من خلالها وبواسطتها هي علاقة الانا والآخر لاعلاقة آخر بأخر .  
(١) وبذلك فالأنا في الاصطلاح الفلسفي تدل على المذهب الفلسفي الذي يعتبر وجود الكائنات الاخرى غير الأنا وجودا وهمايا او موضوع شك على الاقل , ومن هنا فالمذاهب الفلسفية المثالية لاتعترف بأي وجود آخر غير تمثالات الأنا , فالعالم في نظرها هو ما أتمثله وأتصوره وليس هناك وجود آخر . (٢) ومن هنا يتضح ان مفهوم الانا مبني على السيطرة اي سيطرة الذات على ماتخذها موضوعا لها , ومن خلال ذلك يتحدد موقع الآخر ودلالته ووظيفته في الفكر الاوربي اي بوصفه موضوعا للسيطرة او عدوا , او بوصفه قنطرة تتعرف الذات من خلاله على نفسه اذ يقول سارتر : " انا في حاجة الى توسط الآخر لأكون ما انا عليه " . (٣) فالحديث عن الآخر يعني اكتشاف الذات وعلاقة هذه الذات مع الآخر سياسيا واجتماعيا وحضاريا وثقافيا , وتظل العلاقة بين الأنا والآخر علاقة جدلية افتراضية , فقد تكون الأنا على حساب الآخر , او إلغاء الآخر لصالح الأنا وهذه العلاقة قائمة على ثنائية الأشياء , وعلاقة التضاد القائمة بينهما , واستحالة الدمج بين هذه الثنائيات , والصراع بين الأنا والآخر صراع طويل يرتد الى البدايات الاولى لوجود الانسان , وقد تقترب هذه الغيرية او تباعد بين الأطراف , ولكنها لاتلغى بل تبقى قائمة لان العلاقات الانسانية بطبيعتها قائمة على اساس التباير لا التمازج وفقا للمصالح الذاتية والاعتبارات الخاصة . (٤) وعادة ما ينظر الأنا الى نفسه على أنه الاكمل والاصوب والافضل , والآخر هو الناقص والخطأ والاسوأ , وهذه النظرية العدائية او الضدية بين الأنا والآخر هي مصدر تعدد الأنا والآخر في مجالات السياسة والفكر والفلسفة والادب ..... الى غير ذلك من مجالات الحياة والمعرفة . والسؤال القائم من هو الانا ومن هو الآخر ؟ فالانا تعني ذات المسيطر على الوضع القائم والذي يرى نفسه صاحب الحق في القيادة السياسية وتمثيل الامة والسيطرة عليها , وما عدا ذلك فهو الآخر المرفوض , لانه لاينسجم مع الأنا المسيطرة . (٥) اما الجانب الواقعي فتبدو الاجابة صعبة , لان الانا والآخر جزء من تشكيلة اجتماعية ودينية وثقافية واحدة ولايمكن الفصل بينهما الا على مستوى الخلاف القائم على اساس نظريات ومصالح تجعل من صاحب النظرية او المصلحة للآخر ندا للآخر او خصما له . وبقدر ما يبدو الصراع حادا بين الانا والآخر على مستوى الفعل وردات الفعل , فأن ذلك ينعكس بشكل او بأخر على الادب بأنواعه المختلفة . (٦) وانطلاقا من التعددية لانا والآخر والتي تتمثل شاخصا للعيان في فن التوقيعات المتعدد الشخصيات ارتأينا دراسة صورة الآخر في فن التوقيعات وفق رؤية تحليلية مستفيضة .

### المحور الثاني : في أدب التوقيعات :

التوقيعات لغة هي جمع توقيع , والتوقيع هوسحج في ظهر الدابة , وقيل في أطراف عظام الدابة من الركوب . (٧) والتوقيعات اصطلاحا : هي الكتابة على حواشي الرقاع والقصاص بما يعتمده الكاتب من أمر الولايات والمكاتبات في الأمور المتعلقة بالمملكة والتحدث في المظالم وهو

أمر جليل ومنصب حفيل (٨) وتعود بداية ظهور هذا الفن الى العصر الراشدي وانتشرت الا انها قلت في العصر الأموي قياسا الى العصر الراشدي، وعاتت وازهرت ثانيا في العصر العباسي لوجود العوامل المتعددة التي اسهمت في ازدهارها ومنها انتشار الفتوحات الإسلامية، وانتشار الكتابة والتعلم والتعليم، وحاجة الولاة الى الردود السريعة على مكاتبتهم او رسائلهم لأهميتها وكثرتها، كثرة الأعباء الملقاة على كاهل الحكام، مواقف بعض الحكام او الولاة من الرعية، وتشدد بعض الولاة وانتشار الفساد في بعض المظالم وكثرة المظالم والتظلم من الولاة وتفضيل المصالح الشخصية على الأمور الخاصة بشؤون الدولة والرعية، وتقصير بعض الولاة في فهم أوضاع الناس، ظهور كثير من المتاب في بلاط الخلفاء والحكام، واهتمام الناس بالتوقيعات وولعهم بها وحرصهم على انتقائها (٩) وقد تنوعت موضوعات التوقيعات بين الموضوعات السياسية، وموضوعات اجتماعية تتعلق بالعدل ورد المظالم والفقر وتحسين الأوضاع (١٠).

### المحور الثالث: التطبيقات النصية لصورة الآخر في فن التوقيعات :

نتحدث في هذا المحور عن صورة الآخر في فن التوقيعات في العصر العباسي وفق رؤية تحليلية فنية، متجسدة من خلال خصوصية فن التوقيعات التي صورت الآخر بصور متعددة فمن خلال استقرارنا لفن التوقيعات وخصوصيته النصية في عرضه السردي وجدنا تعددية الآخر من خلال صورة الحاكي او الراوي المتحدث (الآخر)، ومن خلال صورة المروي له (الآخر) الخليفة او الوزير، وصورة الغائب (الآخر) المروي عنه من خلال القضية المطروحة. ففن التوقيعات يقوم على عرض قضية بصيغة سردية مبسطة ويطلب من الخليفة او الوزير ابداء رأيه بهذه القضية ومن خلال ذلك يعرج احيانا الى رأيه بالآخر (الغائب). وبذلك فهناك ثلاث صور للآخر تتجسد في فن التوقيعات نستطيع أن نوضحها بالمخطط الآتي :

الآخر (الراوي) \_\_\_\_\_ والذي يمثل صورة الشاكي أوالسائل

الآخر (المروي له) \_\_\_\_\_ والذي يمثل صورة الخليفة او الوزير (الحكيم) المخاطب

الآخر (المروي عنه الغائب) \_\_\_\_\_ والتي تتمظهر صورته للمتلقي من خلال القضية المطروحة والمطلوب التوقيع عليها فأما تكون صورة ايجابية او صورة سلبية .وأحيانا وفي بعض التوقيعات تتجسد صورة الآخر من خلال شخصين هما الحاكم والمحكوم في خطاب موجه وصريح من الخليفة او الوزير الى الشخص الذي ينصحه او يوجه له توقيعا معينا .وسوف نأخذ نماذج من تلك المرويات النصية التوقيعية لتتضح لنا صورة الآخر من خلال وقفنا التحليلية الفنية مع تلك النصوص .فقد وقع السفاح في كتاب لأبي جعفر المنصور وهو يحارب ابن هبيرة بواسط : "ان حلمك أفسد علمك، وتراخيك أثر في طاعتك، فخذ لي منك، ولك على نفسك" (١١) فمن خلال هذا التوقيع ترسم صوريتين للآخر صورة الآخر المتحدث (السفاح) والتي تظهر من خلال توقيعه بصفات الحكمة والتجربة الواعظة فضلا عن البلاغة المتجسدة في دقة توقيعه وابعاده المكثف فضلا عن مرونته وأخلاقه في مخاطبة الآخر المخاطب (ابا جعفر المنصور)، فبلاغة التوقيع من بلاغة صاحبه وقد امتاز توقيعه بالتوازن او التقسيم المتوازي للجملتين فضلا عن الصورة الاستعارية الكامنة في قوله "أن حلمك أفسد علمك" فضلا عن اسلوبية الوصل في عطف الجملتين على بعضهما مما اسهم في اضاء تلك الصفتين على الآخر (المخاطب). وقد اسهمت بلاغة المتكلم (الآخر) في بيان صفات (الآخر) ،المخاطب الذي اثرت صفاته الأيجابية من حلم وتراخي في موقفه من (الآخر) المحارب لأن الحرب تستلزم الشدة وليس (الحلم) والقوة وليس (التراخي). وقد رفعت الى يحيى البرمكي رسالة ركيكة العبارة كتبت بخط جميل فوق "الخط جسم روحه البلاغة، ولاخير في جسم لاروح فيه"، (١٢) فقد اسهمت الصورة التشبيهية الكامنة في هذا التوقيع في تجسيد صورة الآخر (كاتب الرسالة) والذي يمتاز بصورة الخطاط الجميل الخط الركيك العبارة، وقد اسهم هذا التوقيع في استنهاض هذا الآخر المخاطب (كاتب الرسالة) لتمون عباراته بليغة تتناسب خطه الرائع ولاشك ان الآخر المتحدث (البرمكي) كان حاذقا في اختيار صورة البحية والموت بقوله (الخط جسم روحه البلاغة، ولاخير في جسم لاروح فيه)، ليققق من تلك الصورة استنهاضا يدفع الآخر المخاطب (الكاتب) بأن يبث الروح (البلاغة) في الجسم (الخط). وقد اسهم هذا التوقيع البليغ الموجز في السعي الى اكتمال صورة الآخر ليكون حسن الخط والعبارة. وقد أتى ابو جعفر المنصور كتابا من صاحب الهند يخبره أن جندا قد شغبوا عليه، وكسروا أقال بيت المال فأخذوا أرزاقهم منه، فوقع "لو عدلت لم يشغبوا" (١٣) والتوقيع هنا يتضمن ثلاثة أشخاص :الآخر المتحدث (صاحب الهند)، والآخر المخاطب (ابو جعفر المنصور) والآخر (الجنود)، وقد اسهم هذا التوقيع في بيان صورة الآخر فتكاد تكون صورة الآخر المخاطب الحاكم هي صورة ثابتة بحكمتها وبلاغتها وحصافتها في التوقيعات الرسمية باكملها، اما التغيير او التحرك فيكم في صورة الآخر المتحدث والآخر الغائب ان وجد، فالتوقيع هنا وضع صورة الآخر المتحدث صاحب الهند بقله العدل بين رعيته وقد اسهم حرف الشرط ( لو ) في ررد الآخر بالشحنات التقويمية ليمنع رعيته من الشغب عليه ويراجع نفسه من خلال الخطاب التوبيخي من الآخر الحاكم

فضلاً عن ذلك فقد اتضحت صورة الآخر (الجند) من خلال منظاري المنظار الأول الشخص المتحدث المشتكي من شغبهم وكسرهم لأقفال بيت المال وأخذهم الأرزاق فهذا المنظار اظهرهم بصورة سلبية مشاغبة سارقة، أما المنظار الآخر والمتجسد من خلال الحاكم المخاطب فهي صورة المظلومين الذيب افقروا الى عدالة حاكمهم فاضطروا الى الشغب والسرقة لأخذ حقهم وهي صورة مغايرة ومتضادة تماما مع الصورة الأولى، وبذلك برزت صورتان للآخر (الجند) من خلال هذا الخطاب والتوقيع. وتتجسد التوقيعات أحيانا بصورة كنائية تكون لها أبعادها التقييمية للآخر (المخاطب)، ومن ذلك قول جعفر البرمكي إذ وقع في قصة مستمنح قد كان وصله مرارا إذ قال "دع الضرع يدر لغيرك كما در لك". (١٤) فالتوقيع اتخذ صورة كنائية تتمثل بدرع الناقة الذي يمثل الرزق الذي يرتزق من منه الآخرين. وقد ضرب البرمكي بهذا مثلا ليجسد ببلاغته وحكمته صورة الآخر (المخاطب) الذي يطلب الأستمناح بصورة الأنا الغالبة والطمع في المزيد وتهميش الآخر الغائب، ولاشك ان هذا التوقيع اسهم في تقويم سلوك الآخر (المخاطب) وجعله يفكر بالآخر الغائب وينكرأناه المتضخمة. وقد يسهم الجناس في بلاغة التوقيع وإيجازه الدال في وعظ الآخر وبيان صورته وتقويمه ومن ذلك توقيع الفضل بن سهل في توقيعه لصاحب الشرطة (ترفق توفيق)، (١٥) كذلك في توقيعه لحاجبه (تمهل وتسهل) (١٦). فالجناس يعطي التوقيع الأيجاز والتكثيف الدلالي الذي يبقى عالقا في ذهن المتلقي (الآخر) ويسهم في استهاضه اللاشعوري. ووقع هارون الرشيد الى صاحب خراسان وقد بدأ الناس يزمرون عليه (داو جرحك لايتسع) (١٧)، فقد اسهمت هذه الصورة الكنائية في بيان شخصية (الآخر) صاحب خراسان ومايمتاز به من سلبيات بدأت تظهر في شخصيته الحاكمة، فقد طلب الخليفة (الآخر) المتحدث من الآخر المخاطب ان يقوم من هذه السلبيات كي لاتتسع دائرة السلبيات وتتحول شخصيته من الايجاب او الآخر الايجابي الى الآخر السلبي فعليه بمداوة ومعالجة الخل قليل ان يتسع كما يداوى الجرح قبل اتساعه. وكثيرا ماكانت التوقيعات مقتبسة من القرآن الكريم وكانت ايضا بدلالاتها العميقة تبين مدلولات عميقة ورؤى متعددة للآخر الحاضر والغائب. ومن ذلك ماوقعه الخليفة العباسي المهدي الى عامل أرمينية وكان قد شكا اليه سوء طاعة رعاياه إذ قال "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين" (١٨)، فالآية القرآنية جسدت شخصية الآخر المتحدث وخصافته وملكته الدينية والأدبية والسياسية، فضلا عن صقل صورة الآخر (المخاطب) بأخذه العفو وامره بالعرف واعراضه عن الجاهلين المقصود منهم الآخر الغائب والذي يمثل (رعاياه في سوء طاعتهم). ومن التوقيعات البليغة والتي تجسد الآخر وتعدديته المطلقة توقيع المأمون الى عامل في قصة من تظلم منه "ليس من المروءة أن تكون أنتيك من ذهب وفضة، وغريمك خاو وجارك طاو". (١٩) فالآخر المتحدث جسدت شخصية الآخر (المخاطب) الذي يفترق الى المروءة بمخاطبة ضمير الآخر (المخاطب) واستهاضه من خلال تلك الصورة الفنية الكامنة في هذا التوقيع والتي تجسد الثنائية الضدية بين حال الآخر المخاطب وما يرفل به من نعيم وذهب وفضة، والآخر الغائب الذي يعاني من الخواء والجوع. فذلك الخطاب الأستعطافي التوبيخي حرك ضمير الآخر (المخاطب)، ليحرك أنه المتعالية المهمشة للآخر بعدم الشعور به وبمعاناته، لترفده بالعطايا وتصلح حاله. ومن التوقيعات المباشرة بين المتحدث (الآخر)، والمخاطب (الآخر) ماوقعه المأمون في رقعة مولى طلب الكسوة فقال "لو أردت الكسوة للزمت الخدمة، ولكنك أثرت الرقاد فحظك الرؤيا". (٢٠) فالتوقيع الحوارية المباشر وتوظيف اسلوبية الشرط اسهمت في ردف النص بالشحنات الأستهاضية التي حفزت الآخر (المخاطب) للعمل ونبذ الأنا المرتاحة والشعور بالآخرين (المجتمع) بتقديم الخدمة لهم كي يشعرون به وينال رزقه. وقد وقع جعفر بن يحيى في كتاب رجل شكا اليه بعض عماله: "قد كثر شاكوك، وقل شاكروك، فإما اعتدلت، وإما اعتزلت". (٢١) فالتقسيم المتوازي والجناس الطباقية اسهم في ردف النص بمعاني الآخر المخاطب، وبيان صورته بقله شاكره وكثرة شكاته، لتدخل أما التفصيلية الخيارية والموظفة من قبل الآخر المتحدث بالأعتدال أو الأنعزال.

### الذاتة:

خلص البحث الى نتائج مهمة وهي ان موضوع التوقيعات امتاز بخصوصيته في تجسيد الآخر من خلال سياقه القصصي او الأخباري، فأضحى الآخر وتعددا من خلال شخصية الراوي والمروي له والمروي عنه وبذلك نجد تعددية الآخر، فضلا عن ذلك ان التوقيعات كانت بإيجازها وكثافتها الدلالية عاملا وعنصرنا تربويا توجيهيا للآخر (الخاطب) ليراجع نفسه ويستنهض ذاته وأناه ويشعر بالآخر الغائب. وهذا النثري المهم وجدناه جديرا بالنقاش في موضوع الآخر لانه يستحق ولم يبحث من قبل، فضلا عن ذلك ان ثبوتية صورة الآخر المتحدث او المروي له (الحاكم) وإيجابيتها وتعددية صورة الآخر المخاطب والغائب اسهم في ردف النص التوقيعي بالطاقات التصويرية والرؤى المتعددة المجسدة لشخصية الآخر بكل صفاته.

هوامش البحث ومصادره

- (١) ينظر: صورة الآخر في الشعر العربي من العصر الاموي حتى نهاية العصر العباسي .د.سعد فهد الذويخ ,عالم الكتب الحديث ,جدار للكتاب العالمي : ١٢
- (٢) ينظر: صورة الآخر في الشعر العربي .د.فوزي عيسى ,الكويت , ٢٠١١: ٢٢
- (٣) م.ن: ٢٥
- (٤) م.ن: ٢١
- (٥) ينظر: الآخر في الشعر الجاهلي .مي عودة ياسين : ١١
- (٦) ينظر : الآخر في شعر المتنبي .رولاخالد محمد . ٢٠١٠ : ١٠
- (٧) لسان العرب مادة ( وقع )
- (٨) ينظر :معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب:مجدي وهبة وكامل المهندس,مكتبة لبنان ,بيروت , ١٩٧٩م : ٧١
- (٩) النثر في العصر العباسي .د.هاشم مناع .د.مأمون ياسين ,ط١,دار الفكر العربي ,بيروت ,لبنان , ١٩٩٩م: ٢١٥
- (١٠) م.ن: ٢٢٠- ٢٢٢
- (١١) العقد الفريد:احمد بن عبد ربه ,تحقيق د.مفيد قميحة ,دار الكتب العلمية .ط١ ,بيروت ١٩٨٣م: ٤/
- (١٢) وفيات الأعيان :ابن خلكان ,تحقيق د.احسان عباس ,دار صادر ,بيروت ,د.ت: ٤٧٤/١
- (١٣) م.ن: ٤٧٤/١
- (١٤) م.ن: ٣٢٩/١
- (١٥) خاص الخاص :الثعالبي ,منشورات دار مكتبة الحياة ,بيروت (د.ت): ٨٧
- (١٦) م.ن: ٨٧
- (١٧) صبح الأعشى :القلقشندي ,وزارة الثقافة والأرشاد القومي ,نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ,القاهرة د.ت : ٦٦/١
- (١٨) م.ن: ٦٢/١
- (١٩) م.ن: ٦٢/١
- (٢٠) م.ن: ١١١/١
- (٢١) العقد الفريد : ٣٠٢/٤